الحصة الأولى

الفَلْسَفَة وَاليَوْمي: أيَّةُ عَلَاقَة؟

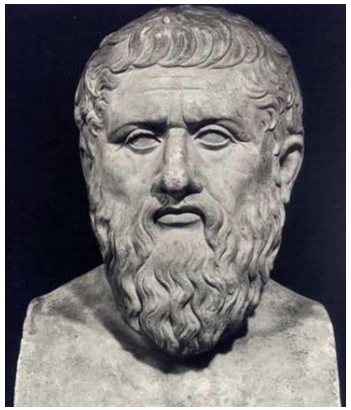

الفلسفة واليومي: علاقة ملتبسة

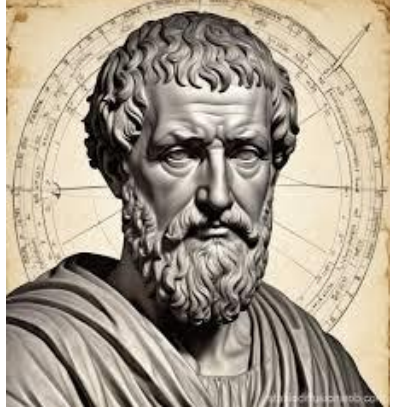

لفهم العلاقة الملتبسة بين الفلسفة واليومي، سننطلق من قصَّة طريفة من محاورة «ثيثياتوس» لأفلاطون، تُصوّر طاليس وهو يمشي، لكنه تعثَّر وسقط في البئر. جاءت القصَّة بهذه العبارة: **«بينما كان طاليس غارقًا في قياس النجوم [...] وبينما هو ينظر في السماء، سقط في بئر ولاحظت الخادمة التراقية (servante thrace) هذه المزحة بإيقاع تام ومشهد مثير: في ولعه بأشياء السماء، كان يجهل ما هو أمام قدميه!»**. على الرغم من الطابع المبتذل للقصَّة، فهي تنطوي على مدلول ذي أهميَّة قصوى بالنسبة للمبحث الذي يهمُّنا هنا، وهو العلاقة بين الفلسفة واليومي.

سقوط طاليس في البئر

مسوّغ اختيار طاليس

يمكن أن نطرح جُملة من الأسئلة لمعرفة لماذا اختار أفلاطون شخصية طاليس بالضبط؟ ولماذا يتعثَّر طاليس أمام أعيُن الخادمة؟ في رواية أخرى، سقوط طاليس على الأرض سبَّب قهقهة لدى الخادمة؛ وفي رواية أخرى، حصل الحادث أمام شهود، أي أمام مرأى الناس. نناقش كذلك الرموز: ماذا تُمثّل «البئر» في هذه القصَّة؟ وماذا تُمثّل «السَّماء»؟ لا يمكن أن نأخذ البئر فقط بوصفها حُفرة؛ ولا أن نأخذ السَّماء بصفتها ظاهرة كسمولوجية تحتوي على نجوم ونيازك.

رمزية القصَّة

عندما يتحدَّث أفلاطون عن الأشياء الحسيَّة، فلِكَيْ يجعل منها «أمثولة» (allégorie) يُفسّر بها المغزى من الشيء وإمكانية أن يحيل إلى حقيقة متوارية أو متعالية، تمامًا مثلما فعل في الكتاب السابع من «الجمهورية»، مع أمثولة أو أسطورة الكهف، حيث الجدران والظل والنار والنور كلها أشياء حسِّيَّة أو ظواهر لها مدلولات معيَّنة، فتصبح بالتالي رموزًا، إذا عرَّفنا الرمز على أنه «علامة نتعرَّف بها على حقيقة معيَّنة»، حيث الطابع الجليّ أو الظاهر يُحيل إلى البُعد الخفيّ أو الباطن. من شأن الرمز أن يدفع إلى التأمُّل، أن يتيح التفكير. نحو ماذا يحيل رمز البئر ورمز السماء؟ وأيُّ نوعٍ من التفكير تتيحه هذه الرموز؟

المفارقة

قدَّم جون غرايش بعض التأويلات حول ما يمكن أن تدلَّ عليه هذه الرموز. يمكن للبئر أن ترمُز إلى «المفارقة» (paradoxe) التي هي الأمر «المناقض للرأي المسلَّم به عمومًا، للتوقُّع أو الاحتمال». يمكن القول بأنه الرأي الشاذ الذي لا يُقاس عليه، لأنه ليس محل قبول أو إجماع، وجُعل من أجل التسلية أو الظهور أو الإدهاش. فهو يُؤدِّي إلى نتائج متناقضة. السقوط في البئر هو بشكلٍ ما، السقوط في المفارقات. وجود شهود يسخرون من الفيلسوف المتعثّر، من شأنه أن يدلَّ على نفور الجمهور من التفكير المجرَّد والمعقَّد. يُصدّق ذلك قول أفلاطون في الكتاب السادس من «الجمهورية»: «يستحيل على الجمهور أن يكون فيلسوفاً».

الحقائق المتعالية

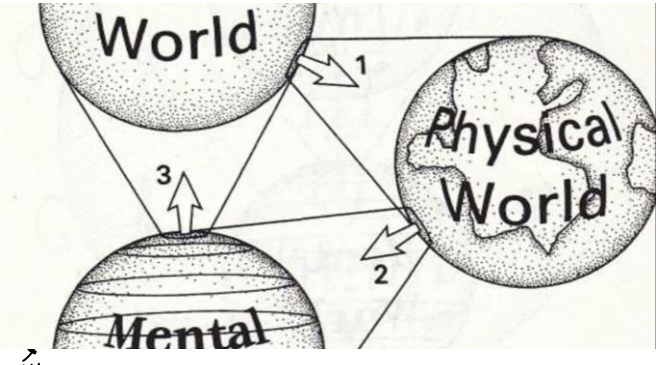

الفيلسوف مهموم بالتوصّل بالحق والتأمُّل في الأمور الجوهرية، ونقترب هنا من «السماء» التي ترمز إلى هذه الأمور الجوهرية والمتعالية، التي تتواجد في عالم المُثُل النَّاصعة. لكن معكوس القضيَّة، وهذا يزجّ بنا في صُلب الموضوع، هو أن تأمُّل الفيلسوف في الأمور الثابتة والسرمدية، بتعلّق نظره نحو السَّماء، يصرفه عن النظر أمامه لتفادي الفخاخ والعوائق الموجودة في طريقه، أي أنه لا يعير اهتماماً بالأمور الاعتيادية للحياة اليومية، التي يعتبرها تافهة أو ثانوية؛ فيسقط بالتالي في البئر، ويتمرَّغ وجهه في تُراب هذه الحياة العادية.

قياس النجوم

في القصَّة التي أوردها أفلاطون، نرى بأنَّ هذا الأخير يستهجن سلوك طاليس، ليس لأنه ابتعد عن الواقع، وإنما لأنه ابتعد عن المُثُل الناصعة مثل النجوم التي تُزيّن السماء. كان همُّ طاليس طبيعيًا وهو «قياس النجوم» كما في جاء في القصَّة، أي البحث عن حساب فلكي، وليس التَّوقُ إلى الحقائق الخالدة. يردف أفلاطون قائلًا: «في ولعه بأشياء السماء، كان يجهل ما هو أمام قدميه!». جاء هذا الحُكم من الخادمة (أي من «الإنسان العادي») التي استغربت من اشرئباب عُنُق طاليس نحو السماء، ناسيًا أو متناسيًا أشياء الأرض أمام قدميه، فوقع في البئر.

السؤال

يسقط الفيلسوف في الأمور الغائرة وهي المسائل الميتافيزيقية. ما أن يطرح السؤال، يزجُّ الفيلسوف نفسه في غابة متشعّبة من المسائل والقضايا قد لا يجد لنفسه مخرجًا منها. إذا كان سلاح الفيلسوف هو «السُّؤال»، أليس من خاصيَّة السُّؤال أنه يبحث عن الجوهري والخالص، ويُساعد بالتَّالي على النظر إلى أشياء الأرض أو الواقع اليومي، ليس نظرة استعلاء واحتقار، وإنما نظرة تمعُّن وتدقيق لاستخلاص عناصر فهمية تُساعد على إدراك هذا الواقع والإحاطة به؟ لعلَّ الفينومينولوجيا، بطريقتها في الوصف وتعليق الأحكام، هي حريَّةٌ بأن تُقدّم وجاهة السُّؤال في التوجُّه داخل اليومي.

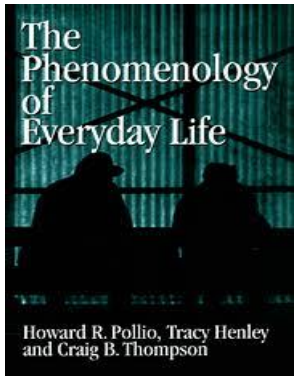

فينومينولوجيا الحياة اليومية

كانت هذه مثلًا إحدى محاولات بروس بيغو «**اكْتِشَاف اليَوْمي: عَنَاصِر منْ أجْل فينُومينُولُوجْيَا عَالَمْ الحيَاة**». ليكون هذا الاكتشاف الفكري عبارة عن كشفٍ فينومينولوجي في ماهية اليومي ذاته. يُراهن بروس بيغو على نوعٍ من «الشَّغف باليومي» (la passion du quotidien) من أجل إعادة اكتشاف اليومي الذي يقول عنه ميكائيل شيرنغهام بأنه في الوقت نفسه القريب والبعيد، المألوف والغريب، المبتذل والجوهري، إلخ. كل دراسة لليومي تنطلق من الوعي بالفاصل الهام بين الفلسفة واليومي كما يقول بروس بيغو. يحتفظ كل طرف بهُويَّة خاصة، لأن هويَّة الفلسفة ليست عينها هُويَّة اليومي، من حيث أن الأولى هي دراسة والثاني هو موضوع الدراسة؛ وأن الأولى تشكيل نظري والثاني معطى واقعي.

اللاتحديد

- يتميَّز اليومي باللاتحديد (indétermination)، لأنه مفتوح على الإمكان والمصادفة، يتحوَّل ويرتقي؛ ولأنَّ العُنصر المبدئي والبسيط الذي يُركِّب اليومي هو «الفعل» البشري القائم هو الآخر على العفوية والعَرَضية، ينبثق ويندثر على الفور في سلسلة مستمرة من الأفعال الجزئية المتناسقة لأداء مهمَّة معيَّنة. في سياق هذا الفعل العفوي لكنه منظَّم بإجراءات عملية منسَّقة (تبعًا للاستدلال العملي: التداول-الاختيار-القرار والإنجاز)، نقف على مصادفات في الواقع، يمكنها أن تُعدِّل من مشروع الفعل بتعديلٍ في طريقة شروعه وفي أهدافه: «اليومي، يقول شيرنغهام، قريب منَّا وبعيد عنَّا في الوقت نفسه، إنه دائمًا في الأفق».

المجرَّد والعفوي

تكمن المشكلة بالنسبة للفلسفة في القُدرة أو عدم القُدرة على الإحاطة باليومي ودراسته في خصوصيته وفهمه في غاياته. هل تنزعج الفلسفة من دراسة اليومي على اعتبار أنها المنظومة النظرية التي تحاول القبض على موضوعٍ يفلت منها؟ هل يشعر الفيلسوف بالقرف والإحباط عندما يعجز عن مسايرة الطابع المتقلّب لليومي؟ هنا يتبدَّى التوتُّر بين الفلسفة واليومي، من حيث أن الطابع النظري والمجرَّد للفلسفة يتعارض مع الطابع الواقعي والعفوي لليومي. يُفسّر شيرنغهام ذلك بقوله: «غالبًا ما تعتبر الفلسفة والتفكير المجرَّد (بما في ذلك التفكير العلمي) اليومي على أنه مشؤوم، لأنه يُجبرنا على أفعال قصيرة المدى، ملموسة ورتيبة؛ ولا يُحفّز على التفكير النظري ويعمل على الصعيد الفكري على تشجيع المحافظة». لأن اليومي روتيني ويقوم على تكرار الأفعال وبالتالي المحافظة على وتيرة واحدة من السلوك والمبادرة.

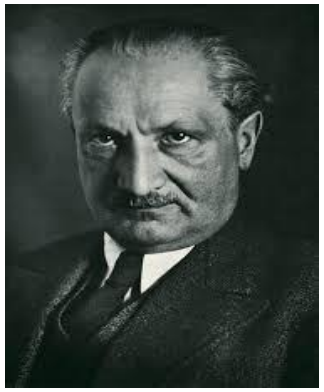

اليوميَّة

أشار العديد من الفلاسفة (نيتشه، وهايدغر، وفتغنشتاين، ولوفيفر...) إلى هذا الطابع الملتبس والعفوي لليومي، وإلى صعوبة ضبطه في قوالب أو حصره في مقولات. لا يمكن استحضار كل الفلاسفة الذين كانت لهم رؤى مختلفة حول اليومي، تبعًا للاستراتيجيات التأويلية التي انطلقوا منها (ماركسية، وفينومينولوجية، وسوسيولوجية، إلخ)، لكن حسبنا بعض العيّنات التي سنتطرَّق إليها في الحصص القادمة، وأخص بالذكر هنري لوفيفر الذي كان أكثر طموحًا بمشروعه الضخم «**نقد الحياة اليومية**»، والذي سيعمل على التفريق بين الصورة الجادَّة والإيجابية لليومي والصورة المبتذلة والتافهة التي ينعتها باليوميَّة (quotidienneté).

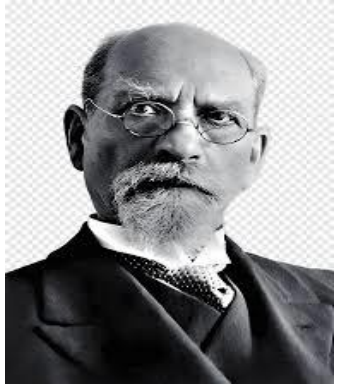

اللغة وعالم الحياة

توُّجهات هُسّيرل وفتغنشتاين في هذا المضمار مفيدة: الأوَّل الذي كشف عن البنيات التفكيرية القبلية الضاربة بجذورها في عالم الحياة، والثاني الذي بيَّن دور اللغة (اللُّعب أو المفاتيح اللغوية) في بناء تفكيرٍ ينتقل من البساطة إلى التعقيد ويكون «أسلوب الحياة» (Lebensform) هو اللوحة الخلفية لهذا البناء العملي للتفكير الفلسفي. يخلص بيغو إلى القول بأنَّ «اليومي أصبح المجال الجديد الذي تمتحن فيه الفلسفة قُدرتها على استجلاء العالم». سنبدأ من الحصة القادمة في عرض مجموعة من الفلاسفة الذي جعلوا من اليومي موضوعاً للدرس النقدي بالكشف فيه عن عناصر الغرابة والألفة وكل الأبعاد الملتبسة التي تقول جوهر هذا اليومي.